نشأة دولة المماليك وتطورها

م. م . وعد الله زيدان وهب*
م. م . ياسر مصلح عزيز *

ملخص البحث

تعد دولة المماليك من ابرز الدول التي ظهرت في شمال افريقيا و بالتحديد في مصر وكان لها أثر كبير في التاريخ الاسلامي من خلال التصدي للغزو الصليبي والمغولي، ومن هنا تبرز اهميتهم وذلك لما قدموه من خدمة كبيرة للإسلام والمسلمين بعد أن حافظوا على تراث الامة الاسلامية من الضياع والدمار على ايدي المغول ، ومن هنا جاء سبب اختيار موضوع البحث (نشأة دولة المماليك وتطورها).

Abstract

The Mamluk state is one of the prominent and important state in northern Africa and it have a significant impact on Islamic history through standing against Christians and Mongols, from thereon their significant role is prominent as for their offering a big service to Islam and Muslims after they keep the heritage of Islamic nation from lost and damage under the hand of barbarian, from this set the study entitled "Emergence of Mamluk state and its development"

* جامعة الموصل / كلية التربية الأساسية .
* جامعة الموصل / كلية التربية الأساسية .

المبحث الاول : أصل المماليك ونشأتهم :

المماليك جمع أصل المماليك ونشأتهم:

المماليك جمع مملوك، وهو اسم مشتق من الجذر الثلاثي (ملك) يعني[١]، والمملوك هو عبد مالكه[٢]،وان كلمة (مماليك) تختلف في معناها عن كلمة (موالي)[٣]،وأيضاً تختلف عن كلمة(العبد)[٤].

كان الترك الذين يؤسرون في الحروب يشكلون أكبر نسبة للرقيق وكانوا يجلبون من بلاد ما وراء النهر إذ كانت تلك الجهات مسرحا دائما للقتال ، ثم غدا الصقالبة مصدر آخر للرقيق، وكان يؤتى بهم من شرقي أوربا الى المانيا وفرنسا والاندلس حيث يباعون ويبدو أن ظاهرة الرق كانت منتشرة في العصور الوسطى حيث تتوفر الرغبة في اقتنائهم لغرض الخدمة واللهو وزجهم في الجيش ، لذلك كان التجار الرقيق يجلبون الغلمان والفتيان من بلادهم البعيدة إلى أسواق الرقيق لبيعهم وتشير المصادر إلى أن أول من استكثر المماليك الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م) فقد ذكر أن بلاطه ضم عددا كبيرة من المماليك و كذلك بلاط الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٣م) الذي أراد أن يحد من نفوذ جنوده من الفرس و العرب فكون جيشا أغلبه من التركمان[٥]، ويظهر أن الأمر الذي شجع الأيوبيين في مصر و الشام على الاستكثار من المماليك (٥٨٩هـ/١١٩٣م) ، فكان الملك الصالح نجم الدين أيوب اول من استكثر من شراء المماليك ويدل على ذلك ما ذكره أبو الفداء ، بان أكثر أمراء عسكره كانوا، مماليك تحت حكم الدولة المملوكية في القاهرة، استمر الحُكام في شراء المماليك الذكور صغار السن. وعاشوا في ثكنات قلعة صلاح الدين الأيوبي في القاهرة. وبسبب وضعهم الاجتماعي المنعزل (بدون روابط اجتماعية أو انتماءات سياسية) إلى جانب التدريب العسكري غير الرسمي لهم، فقد كانوا محط ثقة بسبب إخلاصهم لحكامهم. وعندما استُكملت تدريباتهم، تم تسريحهم، ولكنهم ظلوا مرتبطين بالراعي الذي اشتراهم. وقد

اعتمد المملوك على مساعدة راعيه للتقدم الوظيفي، وعلى نحو مماثل اعتمدت سمعة الراعي وقوته على عبده. وكان المملوك «مرتبطًا بصلة قوية مع بقية أقرانه في نفس الأسرة)).

عاش المماليك داخل ثكناتهم وكثيرًا ما قضوا أوقاتهم مع بعضهم البعض. شملت نشاطاتهم الترفيهية المناسبات الرياضية مثل مسابقات الرماية وعروض مهارات القتال على الأقل مرة واحدة في الأسبوع. وقد ساعد التدريب المُكثف والصارم لكل مجند جديد على ضمان استمرارية الممارسات المملوكية. [٦] ،وقد أعطى الملك الصالح الحرية لمماليكه حتى ضج منهم الناس في مدينة القاهرة ، فاضطر أن يبعدهم عن السكان فبنى لهم قلعة خاصة بجزيرة الروضة في نهر النيل عام ٦٣٨، واتخذ من هذه القلعة مقرا لحكمه، وقد عرف هؤلاء المماليك بالبحرية إضافة إلى الصالحية، والبحرية نسبة إلى جزيرة الروضة، وإن كانت هذه النسبة ليست خاصة بهم إذ أطلقت على كثيرين غيرهم إذ جلبوا مما وراء البحار وخاصة الصقالبة الذين جيء بهم عن طريق البحر[٧].

نستنتج مما تقدم أن المماليك كانوا الدرع الواقي في الدولة الأيوبية اذ شكلوا جزء من قوة الايوبيين العسكرية في الحروب التي حدثت سواء بين أفراد البيت الأيوبي أو بين الأيوبيين وأعدائهم الخارجيين ولعل هذا أحد اهم الأسباب التي اقنعت الأيوبيون في الإكثار من شراء المماليك لبناء قوة عسكرية جديدة.

الأوضاع العامة في مصر قبل قيام دولة المماليك:

كانت الامة العربية الاسلامية تمر بظروف صعبة جدا وخطرة فمن جهة ظهور المغول وتهديدهم للعالم العربي الاسلامي ومن جهة اخرى خطر الصليبيين المتربصين للمسلمين . اذ أن المخاطر تعصف بالدولة الأيوبية من كل جانب وفي مقدمتها خطر الصليبين الذين كانوا قد حشدوا قواهم لشن حملة سابعة على العالم الإسلامي متجهين الى مصر، فضلا عن خطر المغول الذي بدأ في عام (٦١٦هـ) وتوجه المغول نحو اراضي الخلافة العباسية بقيادة جنكيز خان و استطاعوا الاستيلاء على مساحات واسعة فشكلوا خطرا على الايوبيين[٨].

الى جانب هذه الأخطار الخارجية كان هناك صراع بين البيت الايوبي نفسه ، اذ كان السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧هـ -٦٤٧هـ / ١٢٤٠م-١٢٤٩ م) وهو ابن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر ابن الأمير نجم الدين بن شادي الأيوبي قد تولى حكم الدولة الأيوبية في مصر والشام في أيام والده الملك الكامل في سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م)، وكان الملك الصالح الابن الأكبر للسلطان الأيوبي الخامس (الكامل) وبعد أن طالت الرحلة التي قام بها الملك الكامل إلى بلاد الشام لمحاربة الصليبيين، فقد عين ابنه وليا للعهد ونائبا له في مصر[٩].

عندما توفى الملك الكامل في دمشق انقسم ملوك بني أيوب على أنفسهم وكان الصراع قائما من اجل الحكم والسيطرة و عليه بدا الخلاف بين الصالح والعادل ، وهم اولاد الملك الكامل ناصر الدين ، حول عرش السلطنة. ، وبذلك خرج الصالح نجم الدين أيوب من دمشق ومعه خمسة آلاف شخص لمهاجمة مصر ووصل الى نابلس غير ان عمه الصالح تدخل وحال دون ذلك[١٠].

تولى الملك الصالح عرش السلطنة في مصر سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) حتى بادر إلى قتل أخيه الملك العادل الذي كان قد سجن بقلعة القاهرة على يد مجموعة من مماليكه[١١]، كانت هذه ابرز الأوضاع التي كانت موجودة على الساحة السياسية آنذاك.

نبغ من بين أولئك المماليك الذين استكثر منهم الصالح نجم الدين أيوب عدة أشخاص كان لهم أكبر الأثر في تغيير مجرى السياسة المصرية ومن أهمهم (شجر الدر) التي سوف نتحدث عنها في المبحث الثاني.

المبحث الثاني : نهاية حكم الايوبيين وبروز المماليك:

كانت شجر الدرّ (أو شجرة الدّر) ، (ت ١٢٥٧) الملقبة بعصمة الدين أم خليل، خوارزمية الأصل، وقيل أنها أرمينية أو تركية. كانت جارية اشتراها السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وحظيت عنده بمكانة عالية حتى أعتقها وتزوجها وأنجبت منه ابنها خليل الذي توفي في(٢ من صفر ٦٤٨ هـ /

مايو ١٢٥٠م). تولت عرش مصر لمدة ثمانين يومًا بمبايعة من المماليك وأعيان الدولة بعد وفاة السلطان الصالح أيوب، ثم تنازلت عن العرش لزوجها المعز أيبك التركماني سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م). لعبت دورًا تاريخيًا هامًا أثناء الحملة الصليبية السابعة على مصر وخلال معركة المنصورة. وكانت مع زوجها الملك الصالح بالحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع وكان الملك الصالح مع بداية تلك الحملة مريضا[١٢].

فقد تمكن الصليبيين من الاستيلاء على مدينة دمياط ،وهي احدى المدن المصرية الساحلية، وسرعان ما اشتد المرض على الصالح أيوب الذي كان يعاني من آلام الحمى الشديدة واخذ الخوف يسيطر على النفوس وما لبث أن توفى الملك الصالح وفارق الحياة في أواسط شعبان سنة (٦٤٧هـ/١٢٥٠م)[١٣]، لم تكن شجر الدر كباقي النساء همها هو اقتناء الجواهر والعيش في رفاهية القصور الملكية ، بل همها الوحيد هو كيف سيتسنى لها وضع خطوتها الأولى المحافظة على العرش بعد وفاة زوجها الملك الصالح بعد أن كانت تحكم من وراء الستار كملكة غير متوجة في حياة زوجها الصالح أيوب[١٤]، غير أن شجر الدر سرعان ما أدركت خطورة الأمر فيما إذا أعلنت للعامة والجيش خبر وفاة زوجها الصالح الذي كان يدير الحرب لذلك سارعت إلى حزم أمرها وقررت أن تتابع القتال كان شيئا لم يحدث وكانت تعلم التواقيع وتقلد خط زوجها [١٥].

وكتمت شجر الدر نبأ وفاة زوجها حتى وصل إلى مصر ابنه توران شاه الذي استدعته حيث قاد بنفسه قتال الصليبيين، على حين كانت هي تدير أمور المملكة وشؤون القتال باسم زوجها المتوفى ولا يعلم أحد خبر وفاته[١٦]، كان توران شاه قد وصل من بلاد الشام ونشبت معركة هائلة في فارسكور قضى فيها المسلمون تمامًا على الجيش الصليبي ، ووقع الملك أسيرًا، وسيق مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة حيث سُجِن في دار ابن لقمان. واضطر لويس التاسع ملك فرنسا إلى طلب المهادنة والصلح بعد أن وقع أسيرا بأيدي المسلمين، وانتهت الحملة الصليبية السابعة حيث انسحب الملك لويس التاسع إلى عكا، ودفع جزية كبيرة وفداء له[١٧].

لم يحسن توران شاه بن الصالح أيوب معاملة المماليك البحرية أصحاب الفضل في هذا النصر العظيم، وتنكر أيضًا لشجر الدر وأساء معاملتها وتهددها. فبدلاً من أن يعترف بالجميل لهم جميعًا حسدهم على مكانتهم التي بلغوها بفضل شجاعتهم وبأسهم، وبدلاً من أن يقربهم إليه باعتبارهم أركان دولته أعرض عنهم، وخشي من نفوذهم ، وأوجس منهم خيفة ، بل وأضمر لهم السوء، وكان لخفته وهوجه يجاهر بذلك، يضاف إلى ذلك سوء تدبيره وفساد سياسته بإبعاده كبار رجال دولته من الأمراء، وتقريبه رجاله وحاشيته ممن قدموا معه إلى مصر، وإغداقه الأموال عليهم، واستئثارهم بالمناصب دون غيرهم، تضافرت تلك الأسباب وقوّت من عزيمة المماليك على التخلص من توران شاه قبل أن يبطش هو بهم ، فاتفقوا على قتله ، وعهدوا بتنفيذ هذه المهمة إلى أربعة من قادتهم ، منهم فارس الدين أقطاي ، و بيبرس البندقداري ، فنجحوا في قتله في فارسكور في صباح يوم الإثنين الموافق ٢ مايو ١٢٥٠ وبمقتله انتهت الدولة الأيوبية في مصر ، وبدأ عصر جديد،. وفي ظل تلك الظروف برزت قوى سياسية جديدة لأول مرة على مسرح الأحداث السياسي في مصر ألا وهي قوة المماليك البحرية الذين كان لهم أثر في تغيير مجرى الأحداث السياسية في مصر فقد ظهرت بطولة أمراء المماليك في مواجهة الصليبيين في حملتهم السابعة (٦٤٧هـ/١٢٥٠م) حيث نجح بيبرس البندقداري[١٨]، ومعه فرقة من المماليك البحرية الصالحية في التصدي للصليبيين فشن عليهم هجوما من خارج المنصورة وطردهم من بعض نواحيها ثم لاحقهم الأمير اقطاي الذي كان يشغل منصب القائد العام للجيش وقد نجح هؤلاء المماليك في طرد الفرنج إلى دمياط[١٩].

وعلى الرغم من أن توران شاه وصل إلى السلطة دون معارضة تذكر غير أن هذه المعارضة لحكم توران شاه سرعان ما بدأت بالظهور وبدا توران شاه صراعه مع المماليك حول فرض النفوذ والسلطة على مماليك ابيه الصالحية ومما زاد من حدة الخلاف بين السلطان توران شاه والمماليك الصراع والنزاع الذي كان قائما بين مماليك توران شاه من جهة ومماليك أبيه الصالحيين من جهة ثانية[٢٠]، ومما زاد من حدة تلك الصراعات تحريض المماليك للسلطان توران شاه بعد أن أشعروه بأنه ليس إلا حاكمة بالاسم فقط وان الحكم الحقيقي لشجر الدر وأتباعها من المماليك الصالحية المحيطين

زوجة أبيه التي كانت قد أخذت له البيعة واستدعته من مقره البعيد في حصن كيفا وولته السلطة فاتهمها بإخفاء أموال كانت لأبيه حتى بدأت العداوة والبغضاء تدب بينهما فغادرت شجر الدر البلاد إلى القدس هربا من مضايقة توران شاه لها ، فاتفقت كل الأطراف المعادية على التخلص من توران شاه وليس هناك طريقة للتخلص منه غير قتله وتم ذلك سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) [٢٢].

نصبت شجر الدر سلطانة على مصر في الثالث من صفر عام (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) في ذروة احتفال مصر بهزيمة الملك لويس التاسع ملك فرنسا في حملته الصليبية السابعة ومغادرتهم لدمياط ولقبوها باسم (الملكة عصمة الدين شجر الدر والستر العالي والدة خليل) [٢٣].

بعد إن تولت شجر الدر سلطنة البلاد بعد مقتل توران شاه انهي حكم الدولة الأيوبية رسميا تلك الدولة التي دام حكمها (٨١) عاما في مصر (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٦٨-١٢٥٠م) ومع نهاية حكم الدولة الأيوبية ظهرت على أنقاضها دولة أخرى كان لها أثر واضح في تغير مجرى الأحداث السياسية

والعسكرية والاقتصادية وحتى الاجتماعية في البلاد وعرفت تلك الدولة بدولة المماليك البحرية تلك الدولة التي امتد سلطانها على مساحات واسعة من العالم العربي الاسلامي.

وصول المماليك للحكم:

ولم تنعم شجر الدر كثيرا بملكها وسلطانها إذ سرعان ما اضطربت الأمور في مصر عامة والقاهرة خاصة وذلك احتجاجا على حكمها وأنفة من أن تحكمهم امرأة وعمت الفوضى في القاهرة كما لم يوافق الخليفة العباسي المستعصم بالله (٦٤٠هـ-٦٥٦هـ /١٢٤٢م- ١٢٥٨م) على توليتها السلطة وكاتب أهل مصر بذلك قائلا في رده على رسالة من المماليك يطلبون فيها تأييده لحكمها (أن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير لكم رجلا)[٢٤]، وإزاء هذا الوضع الصعب فقد عقدت عصمت الدين أم خليل مجلسا للاستشارة من جديد وطلبت المساعدة من الوزراء والأمراء في خضم

هذا الوضع المهم الحساس وقد وجد أمراء المماليك أنه من اجل المحافظة على الأمن–وبالرغم من أنهم راضون عن ملكتهم . فمن الأفضل أن تتخلى شجرة الدر عن العرش[٢٥].

وفي ظل تلك الظروف سارع الأمراء المماليك إلى تزويج شجر الدر من الأتابك عز الدين أيبك التركماني أتابك العسكر وتنازلت له عن السلطة بعد ثمانين يوما من حكمها فأصبح معز الدين أيبك سلطانا ولو بالاسم حيث أن شجر الدر كانت هي المسؤولة عنه في كل أحواله وليس له معها كلام[٢٦].

وبهذا كانت اللبنة الأولى لحكم المماليك لمصر وتوطدت اركان حكم المماليك لمصر بعد قيام شجر الدر بقتل معز الدين ايبك(٦٤٨هـ –٦٥٥هـ /١٢٥٠م –١٢٥٧م) [٢٧]، فسرعان ما علم أتباع المعز من المماليك المعزية أمر مقتل السلطان وشاع الخبر في كل أنحاء القاهرة وعمت الفوضى أرجاء البلاد إلا أن المماليك المعزية تداركوا الأمر وعملوا على تنصيب علي بن المعز أيبك (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) سلطانا جديدا على عرش البلاد وعندئذ هدأت الأوضاع في البلاد مع تولي علي بن أيبك سلطنة مصر[٢٨].

أما شجر الدر فسرعان ما ألقي القبض عليها من قبل المماليك المعزية ولم يستطع المماليك الصالحية المؤيدون لشجر الدر منعهم من ذلك وتم إرسالها إلى قلعة الجبل الأحمر التي تقع في قلعة الجبل وهو سجن خصص لسجن كبار الأمراء والسلاطين وبقيت مسجونة لفترة حتى أمر السلطان علي بن المعز وبأمر من والدته بإحضارها إلى بيتها وعملت والدة السلطان الجديد بمشاركة ولدها السلطان وجواريها على قتل شجر الدر بنفس الطريقة التي قتلت بها زوجها المعز كما قتل المماليك المعزية كل من شارك شجرة الدر جريمتها في قتل أيبك ومنهم مجموعة من المماليك الذين شاركوا في قتل معز الدين ايبك[٢٩]، وبهذا تخلص المماليك من تسلط شجر الدر وتفردوا بحكم مصر.

المبحث الثالث : التطورات الإدارية للدولة المملوكية :

أولاً: النظام العسكري (الاقطاع):

شكل الإقطاع أهم موارد النفقات العسكرية فطالما كانت القوة العسكرية هي درع المماليك الحصين لمواجهة وردع التمرد الداخلي والخطر الخارجي، لذلك فقد سخر المماليك الإقطاع خدمة لنظامهم العسكري أولا ثم الحفاظ على عرش سلطنتهم من الطامعين فيه.

جرت العادة أن يتولى السلطان بنفسه إلحاق المماليك بالخدمة وترتيب درجاتهم، فإذا حضر أمامه من يطلب الإقطاع، ووقع اختياره على أحد، أمر ناظر الجيش بالكتابة، فيكتب ورقة تسمى المثال(٣٠).

كان للجيش ديوان خاص به يسمى (ديوان الجيش) الذي كان له أهمية كبيرة في ذلك العصر الذي غلبت عليه روح الجهاد ضد الصليبيين حينا والمغول أحيانا، والذي استمدت فيه الدولة المملوكية وجودهما وبقاءهما من فكرة الجهاد والذود عن الوطن في المشرق الإسلامي ضد الأخطار الكبرى التي هددته، وأشرف هذا الديوان على كل ما يتعلق بالجند بمختلف طوائفهم، فكانت تحفظ فيه الأوراق الخاصة بهم، كذلك صار من اختصاصات ديوان الجيش المسائل المتعلقة بالإقطاعات، ففيه سجل خاص لكل إقطاع يمنحه السلطان، واسم المقطع، ومساحة إقطاعه ونوعه. أما ناظر هذا الديوان، فقد عرف باسم ناظر الجيش، ووظيفته من أهم الوظائف في الدولة، وكان يعاونه بعض كبار الموظفين، مثل: صاحب ديوان الجيش، وينوب عن الناظر في تصريف شؤون الديوان، ومستوفي الجيش ويقوم بتحديد الرواتب التي تصرف للجند وتسجيلها في كشوف خاصة بمساعدة مستوفي الإقطاعات. ومستوفي الرزق، ويشرف على صرف مرتبات الأجناد وأرزاقهم العينية، واشترط في هؤلاء الموظفين جميعا الأمانة التامة والكفاية المطلقة(٣١).

كان الجيش المملوكي يتكون من عدة اقسام أهمها:

١. **المماليك السلطانية:** وهم من أهم أصناف الجيش المملوكي كانوا ذو مكانة عالية وقدر رفيع اذ اعتبروا من المقربين للسلطان واقطع لهم أقطاعات كبيرة بالإضافة الى انه مشغلو مناصب عديدة مهمة ادارية وعسكرية مثل منصب (ارباب السيوف) اذ كانت وظيفته تفقد الجنود ومراقبتهم وحماية الثغور وكذلك حفظ الأمن وتطبيق القانون، وايضا تقلد المماليك السلطانة منصب اخر وهو (امير مائة) وهو من اعلى الرتب العسكرية كان من يشغل هذا المنصب يشرف على مائة فارس يكونون تحت تصرفه[٣٢].

كان المماليك السلطانية قوة لا يستهان بها لها وزنها في سوح المعارك ذكرهم ابن دقمان فيقول (المماليك السلطانية هم فئة من أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأشدهم الى السلطان قربا وأوفرهم إقطاعا ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة) [٣٣].

٢. **مماليك الامراء:** وهم الصنف الثاني من أصناف الجيش المملوكي كان الأمراء يستقدمون المماليك اعداد كبيرة وكان هؤلاء المماليك يدينون بالولاء لأميرهم الذي يجلبهم ويعتني بهم فيكونون له عونا ويشكلون قوته التي يتفاخر بها كان يخدمون الأمير ضمن إطار الجيش المملوكي وينسبون في تسميتهم الى اسمه كـ (مماليك الصالحية) الذين كانوا يعملون تحت خدمة السلطان الصالح[٣٤].

٣. **أجناد الحلقة:** اهم أصناف الجيش اذ يعد هذا الصنف نواة الجيش المملوكي فكان السلطان ينشئهم وهم يختلفون عن مماليك الامراء اذ يعتبرون قل مرتبة منهم، لم يكن مقتصرا على المماليك فقط بل دخل في هذا الصنف أيضا الوافدين من التتار وكذلك بعض من العرب والخوارزميين والأكراد، لعبت هذا الصنف دور كبير في صد هجمات الساحلية التي شنها الصليبين على السواحل الشامية ومدنها عكا ويافا وصور [٣٥].

ثانيا: النظام الإداري:

تعد دولة المماليك امتداد لما سبقها من دول و امارات اسلامية لا سيما الدولة الأيوبية (٥٦٩-٦٤٨هـ) اذ ورث المماليك نظامها الاداري لكن في عصر المماليك لم يستمر النظام الوراثي في حكم سلاطينها على وتيرة واحدة فكان الحكم للأقوى هو السائد في بعض الأحيان فأقوى الأمراء واشدهم بأسا واكثرهم عددا من المماليك هو من يتولى حكم الدولة[٣٦]، ولهذا أن المماليك لم يؤمنوا مطلقا بمبدأ الوراثة في الحكم ، بل كانوا يختارون الاكفأ و الافضل والذي يتمتع بالقوة والذكاء فضلا عن الظروف المواتية[٣٧].

ثالثاً: التعليم:

لم يقتصر التعليم عند المماليك على المدارس والخوانق والربط بل ظهر بصورة مختلفة نوعا ما فعندما يتم شراء المملوك، كان أستاذه (أي سيده الذي اشتراه) يحرص على توفير نوع معين من التأديب والتربية والتعليم والنشأة ، بحيث يتعلم تعاليم الإسلام وآدابه، ويترسخ الدين الاسلامي فيه لا يعرف دينا غيره ، ولا يعرف احدا الا أستاذه الذي اشتراه وسهر على تربيته وتنشئته، ولم يبخل عليه بعطف أو مال، حتى إذا ما بلغ مرحلة الشباب حرص على تدريبه على الفروسية واستعمال النشاب والسيف[٣٨].

ويبين لنا المقريزي صورة واضحة للحياة التعليمية التي تتم في الطباق[٣٩]، ومراحلها عند المماليك بقوله: (وكان للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة منها إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان وانزله في طبقة جنسه و سلمه الطواشي برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القران الكريم وكانت له طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتحدث بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار، وكان الرسم إذ ذاك ألا يجلب التجار إلا المماليك الصغار فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئا من الفقه واقرأه فيه مقدمة

فإذا صار إلى سن البلوغ ، أخذ في تعليمه أساليب الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ، ونحو ذلك فيتسع في ذلك حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج)[٤٠].

ويظهر مما سبق أن المماليك كانوا يأخذون نصيبهم من التعليم المدني والحربي، بحيث يعدون إعدادا سياسيا وعسكريا متقنا وبشكل يؤهلهم لتولي مناصب عسكرية وإدارية وسلطانية مهمة ومرموقة في البلاط السلطاني.

رابعا: التجارة:

تعددت الطرق التجارية بين المشرق والمغرب منها البري والبحري كان موقع دولة المماليك تتمتع بموقع استراتيجي مهم ، كانت دولة المماليك تقع على مفترق طرق التجارة ، فكانت تقع على طريق تجارة البحري الذي يأتي من الصين الى الهند فالخليج العربي ثم الى الموانئ المملوكية ، أما الطريق البحري الاخر فيمر من الشرق الأقصى (الهند والصين) عبر المحيط الهندي الى البحر الاحمر ثم الشام المملوكية ومصر ومنها الى أوربا ، اما الطريق البري فهو الذي يمر من اواسط اسيا عبر الهند وبلاد ما وراء النهر والى خراسان ثم يتجه الى الشرق وصولا للموانئ المملوكية ثم الى أوربا[٤١]، ومن خلال ما تقدم نستنتج أن التجارة في العصر المملوكي نشطت بصورة واسعة ويرجع الفضل بذلك للموقع الاستراتيجي لمصر.

هوامش البحث

(١) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ت ٧١١هـ)، لسان العرب ، دار صادر (بيروت، ١٩٦٨) ٤٠٥/٥ .

([٢]) المولى أو الموالي: بمعنى و احد في كلام العرب و هو يدل على عدة مسميات فهو الرب و المالك والسيد، والمنعم والمعتق والناصر، والمحب والتابع والجار وابن العم، والحليف والصهر والعبد؛ ابن منظور، لسان العرب ٤١١/٥.

([٣]) ماجد، عبد المنعم، دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ط١، دار العلمين للطباعة و النشر، (القاهرة، ١٩٧٣) ١١/١.
مملوك، وهو اسم مشتق من الجذر الثلاثي (ملك) يعني

([٤]) محمود، رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك و نتاجهم العلمي و الأدبي ، ط١ (القاهرة ، ١٩٤٧)، ١٥/١.

([٥]) الطبري ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت٣١٠ هـ) ، تاريخ الرسل و الملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دائرة المعارف، (القاهرة ، ١٩٦١)، ٤٢٢/٣.

([٦]) ينظر ، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه ابو الفداء .. (ت ٧٣٢ هـ) ، المختصر في أخبار البشر ، د ، (بيروت، د–ت)، ١٧٦/٣.

([٧]) ابن تغري بردي ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف،بن عبد الله الظاهري الحنفي (ت ٨٧٤هـ) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (القاهرة، ١٩٧٢) ط١١، ٩٠/٤.

([٨]) المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب العلمية (بيروت، ١٩٩٧م) ، ٣٢٣/١.

([٩]) ابن تغري بردي، النحوم الزاهرة، ٣١٩/٦.

([١٠]) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٣٢٤/١.

(١١) الحنبلي، احمد بن إبراهيم بن نصر الله الحنبلى القاهرى المتوفى (ت ٨٧٦هـ) ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، دار الحرب للطباعة والنشر، (بغداد، ١٩٨٧)، ٨٦/١-٩٠.

(١٢) ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر بن عمر (٧٤٩هـ). تاريخ ابن الوردي، ط٢، تحق احمد رفعت البداري، مطبعة دار المعرفة (بيروت: ١٩٧٠م)، ٢٦/١٢.

(١٣) ابن العماد، عبد الحي بن أحمد العسكري (ت ١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط٢ ، مطبعة دار المسيرة (بيروت، ١٩٧٩م) ، ٢٣٨/٥.

(١٤) المقريزي، السلوك، ٢٣٦/٦.

(١٥) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ١٤٠/٣؛ وذكر أبو الفداء أن شجر الدر كانت تخرج الكتب والمراسيم وعليها علامة الملك الصالح وكان يكتبها خادم يقال له السهيلي.

(١٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٣٦٤/٦.

(١٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٢٥٧/٨.

(١٨) **بيبرس البندقداري:** كان قفجاقيا في الأصل بيع في مدينه سيواس ثم اشتراه الأمير علاء الدين البندقداري مملوك الصالح نجم الدين أيوب وقد أخذه علاء الدين معه لخدمة الملك الصالح وأصبح فيما بعد سلطانا على الديار المصرية ؛ المقريزي ، الخطط، ٣٠٠/٢.

(١٩) أبو الفداء ، المختصر،٨٤/٦.

(٢٠) أبو الفداء ، المصدر نفسه ، ٤٥٤/٢.

(٢١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ٦/ ٣٦٤-٣٦٥.

([٢٢]) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ٣٧٠-٣٧١.

([٢٣]) المقريزي السلوك، ١، ٣٦٢.

([٢٤]) المقريزي، السلوك، ٣٦٩/١-٣٦٨.

([٢٥]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٣٧١/٦.

([٢٦]) المقريزي، السلوك، ٣٦٧/١-٣٦٨؛ ابن تغري بردي النجوم الزاهرة، ٣٧٤/٦.

([٢٧]) المقريزي، السلوك، ٢٠٣/٢.

([٢٨]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٣٧٥/٦.

([٢٩]) المصدر نفسه.

([٣٠]) **المثال:** عبارة عن ورقة أي وثيقة رسمية تصدر عن ديوان الخراج إلى كل جندي أو مملوك مبينا بها مقدار ما خصه بالفدان من الأرض الزراعية التي يستغلها وحدودها، و اسم الإقليم و القرية والقابلة أي الحوض الكائنة فيها الأراضي التي خصصت له المقريزي، الخطط، ٨٧/١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٩١/٨.

([٣١]) سعيد عبدالفتاح عاشور، نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبين والمماليك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (د. م، ١٩٨٧م) ٢٦٩-٢٧٠.

([٣٢]) محمد، جاسم، الجيش وتطوره في العصر المملوكي خلال ٦٤٨-٩٢٣هـ، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، مج ١٤، ع ٦، ٢٠٠٧م، ص ١٧١.

([٣٣]) ينظر، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن دقماق (ت ٨٠٩هـ)، نزهة الأنام في تاريخ الاسلام، تحقيق سمير طبارة، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، (بيروت، ١٩٩٩م) ، ١٠٩.

([٣٤]) محمد، الجيش وتطوره في العصر المملوكي خلال ٦٤٨-٩٢٣، ١٧٢.

([٣٥]) محمد، المصدر السابق، ١٧٢.

([٣٦]) علي، عبدالخالق خميس، الفساد الاداري والمالي في مصر في عصر دولة المماليك البحرية، مجلة الآداب، ع١١١، ٢٠١٥ ، ص ٢٤٧.

([٣٧]) عاشور، نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك، ٢٥١.

([٣٨]) عاشور، نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبين والمماليك ،٢٥٠ .

([٣٩]) **الطباق:** ومفردها طبقة وهي ثكنات المماليك بقلعة الجبل وكانت كل طبقة تضم المماليك المجلوبين من بلد واحد، المقريزي، الخطط، ٢/٢١٣-٢١٤.

([٤٠]) المقريزي، الخطط، ٤/٢١٣.

([٤١]) مزبان، أسراه مهدي، نشاط ومعوقات التجارة في العصر المملوكي، مجلة واسط للعلوم الانسانية، ع ١٢، ص ١٧٩.